تجميل القاهرة والاهتمام بالبيئة
فى عهدى محمد على وإسماعيل

دكتور منصور عبد السميع منصور

مدرس التاريخ الحديث والمعاصر

كلية الآداب - جامعة المنوفية

تجميل القاهرة والاهتمام بالبيئة
فى عهد محمد على وإسماعيل

تقديم :

يعتبر الخديو إسماعيل من الحكام المثيرين للجدل، حيث صوره بعض المؤرخين على أنه يمثل الحاكم الشرقى المسرف المستبد الطاغية، الذى استولى على السلطة والثروة التى أنفقها بلا حساب على نزواته ، مما كان وراء وقوع مصر فى براثن الاحتلال البريطاني، وبالتالى فهو فى نظرهم المسئول الأول عن خضوع مصر للسيادة الأوربية ثم احتلالها عسكريا.

وقد رفض عدد من المؤرخين تلك الصورة السابقة، واعتبروه نموذجا للأمير الشرقى المستنير، الذى سبق عصره، وكان على وعي كامل بالأوضاع الدولية بكل ما فيها من أطماع استعمارية، هدفها النهائى السيطرة على مصر، وإذا تركنا الجانب السياسى المثير للجدل بين المؤرخين، واتجهنا إلى جانب البناء والعمران والاهتمام بالبيئة وخاصة فى مدينة القاهرة، لاحتل إسماعيل مكانة متميزة بين من حكموا مصر فى العصر الحديث، حيث كان بلا شك أحد البنائين العظام.

وإذا كان إسماعيل قد لعب الدور الأساسي فى العمل على تحديث مصر، وتغيير وجه مدينة القاهرة والاهتمام بها لكى تصبح باريس الشرق، فمن الطبيعي عدم إغفال الجهود الكبيرة التى سبقت فى هذا الإطار حيث أنه لم يبدأ من فراغ، فقد قامت الحملة الفرنسية بتوجيه نظر المصريين إلى أهمية رش وكنس الشوارع وردم المستنقعات وإقامة المتنزهات، وذلك بهدف القضاء على الأوبئة التى كانت تجتاح البلاد بين الحين والآخر، كما كانت الأمور طوال العصر العثماني، والتى تتضح من خلال كتابات الجبرتي. كذلك لا يمكن إنكار الجهود الكبيرة التى بذلها رأس الأسرة العلوية فى هذا الإطار، والتى كانت ضمن خطة

التطوير والتحديث التى شهدتها مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر.

ثم جاء إسماعيل لكى يكمل ما بدأه جده العظيم ، فقام بتزويد القاهرة بالمرافق العامة، وبناء العديد من القصور، وحوّل المستنقعات والأراضى الفضاء التى كانت تسبب العفونة فى السابق إلى حدائق ومنتزهات. وقام أيضا بتنظيم الشوارع والمباني، وأمدها بالمياه النقية، واهتم بإنارتها، وبدأ فى تنفيذ مشروع الصرف الصحى بالقاهرة. وقد أدت تلك الإصلاحات إلى تحسين البيئة بالمدينة، مما كان وراء توافد الأعيان للإقامة بها.

وقد كانت أفكار إسماعيل وميوله عصرية جريئة، هدفها الرئيسي انتزاع مصر من محيطها الشرقي، وتحويلها لكى تصبح قطعة من أوروبا، حيث كان الخديو مغرما إلى حد بعيد بمظاهر الحضارة الأوربية بصفة عامة، والفرنسية بصفة خاصة. ومن المعروف أنه كان أحد أفراد بعثة الأنجال التى أرسلها جده إلى فرنسا، واستطاع خلال تلك البعثة إتقان اللغة الفرنسية، وبالتالى الاطلاع على أمهات الكتب. واستطاع أيضا أن يتعرف على مدينة باريس بكل ما فيها من مظاهر الرقي، وخاصة مبانيها وشوارعها وحدائقها. ومن هنا تولدت قناعته الخاصة بضرورة تنظيم القاهرة على نمط مدينة باريس، ومن ثم كانت استعانته فى كل مشروعاته بالفرنسيين، وكذلك بالمصريين الذين تعلموا فى باريس مثل علي باشا مبارك.

وسوف نظل نذكر إسماعيل كأحد الحكام العظام، حيث أننا ننسى المعارك العسكرية والدور السياسي للحكام، ولكننا نتذكر دائما دورهم فى البناء والتعمير والتحديث. وهذا ما جعل إسماعيل يحتل مكانة متميزة، بين حكام مصر فى العصر الحديث، اعتمادا على دوره الواضح فى الاهتمام بالبيئة فى مصر عامة وفى مدينة القاهرة بوجه خاص، وسوف يتضح ذلك من خلال صفحات هذا البحث.

الاهتمام ببيئة القاهرة فى فترة الحملة الفرنسية

قبل رصد التغييرات العديدة التى قام بها الفرنسيون، لتغيير الظروف البيئية لمدينة القاهرة، نجد أنه من الضرورى إلقاء نظرة سريعة على الظروف البيئية السيئة التى سادت المدينة خلال العصر العثماني .

كانت المدينة تعاني من كثرة القاذورات، بالإضافة إلى وجود أكوام الأتربة أمام أبوابها[١]. أما بالنسبة للتقسيم الداخلي للمدينة، فقد كانت تتكون من شوارع القصر وتفريعات متعرجة تنتهى إلى عدد لا حصر له من الأزقة، والأدهى من ذلك أن العديد من تلك الشوارع مغطى من أعلى، مما يمنع دخول أشعة الشمس إليها[٢]. ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد فقط ، حيث قام المصريون ببناء عدد ليس بالقليل من الجبانات وسط المدينة [٣]. وفى بعض الأحيان قام البعض بدفن موتاهم فى منازلهم، وكذلك فى المساجد والمدارس [٤]. أما بالنسبة لعملية التشجير وإقامة المتنزهات والحدائق، فقد كانت مهملة تماما طوال العصر العثماني، واقتصر الأمر على قيام البعض بزراعة بعض الأشجار والخضروات بلا أدنى تنسيق. وقد كان الهدف من وراء تلك المزروعات بجوار المنازل الحصول على ثمارها، وليس بهدف التمتع بمناظرها الطبيعية. وقد أدى ضيق الحارات وعدم الاهتمام بتشجيرها ووجود الأتربة وكثرة المستنقعات، إلى انتشار الأوبئة وسائر الأمراض الجلدية[٥] .

وقد أدت تلك الظروف البيئية إلى تعرض السكان للطاعون مرة كل أربع أو خمس سنوات، وقد ذكر علماء الحملة الفرنسية، أن المدينة تعرضت عام ١٨٠١م لوباء الطاعون الذى ترتب عليه فقدان المدينة لحوالي ثلثمائة إلى أربعمائة شخص فى اليوم الواحد وذلك على مدى شهرين متتاليين. ولم يقتصر الأمر على وباء الطاعون فقط، حيث انتشرت الدوستاريا والتى أدت إلى وفاة الكثير من الأفراد، كما أدى انتشار مرض الجدري إلى موت العديد من الأطفال، هذا

بالإضافة إلى مرض الرمد الأوسع انتشارا بين المصريين فى تلك الآونة. وقد أدت تلك الظروف جميعها إلى كثرة الوفيات، وقلة عدد سكان المدينة الذى لم يتعد أربعمائة ألف[٦]. تلك كانت باختصار طبيعة البيئة فى مدينة القاهرة طوال العصر العثماني، حيث لم يكن هناك أدنى اهتمام بالنواحى البيئية، إذ كان الهدف الرئيسى للوجود العثماني الحصول على أكبر قدر من الأموال. ولم يكن هناك أدنى اهتمام بتحديث وتطوير الولاية وقد ازدادت الأمور سوءا فى القرن الثامن عشر، بسبب معاناة مصر من سيطرة المماليك، والذى انصب اهتمامهم على إرهاق المصريين بالضرائب، وتحولت مصر إلى إقطاعيات عسكرية. ومن هنا لم يكن متوقعا فى ظل تلك الظروف توجيه أى اهتمام إلى مثل تلك الأمور، بسبب خضوع مصر لنظام حكم يبتعد كثيرا عن مفهوم الحكم فى العصر الحديث، ويتفق إلى حد بعيد مع طبيعة الحياة فى العصور الوسطى.

وبدأت الصورة تتغير إلى حد بعيد خلال فترة الوجود الفرنسي، حيث اهتم الفرنسيون بتمهيد الشوارع الكبيرة فى مدينة القاهرة، وفتح المنافذ الواسعة التى تصل بين القلعة ومختلف أحياء المدينة. كما قاموا بشق طرق كبيرة بين القاهرة ونهر النيل، وتم تقسيم مدينة القاهرة إلى ثمانية أقسام بهدف تحقيق أكبر قدر من الضبط الإداري، والقيام بالإصلاحات المشار إليها[٧]. ولتوسعة الشوارع قام الفرنسيون بهدم الجامع المجاور لقنطرة الدكة، وكذلك هدموا المناطق المقابلة لقصر الألفي الذى اتخذه بونابرت مقراً له، ثم شرعوا بعد ذلك فى ردم المناطق المجاورة لبركة الأزبكية، واهتموا بغرس الأشجار فى ميدانها الواسع. وأقاموا طريقا يصل بين الأزبكية وبولاق، وغرسوا الأشجار على جانبيه، ثم أحدثوا طريقا آخر فيما بين باب الحديد وباب العدوي كما شيدوا طريقا آخر من الأزبكية إلى جهة قبة النصر[٨].

وقد اهتم الفرنسيون كذلك بالتنبيه على الناس بالمنع من دفن الموتى بالمقابر القريبة من المساكن، كمقابر الأزبكية والرويعي، وأكدوا على ضرورة

دفن الموتى بالمقابر البعيدة، مع الاهتمام بتسفيل الحفر. ولم يقف الأمر عند ذلك فقط حيث صدرت الأوامر من قبل الحاكم الفرنسي بضرورة إلزام الناس، بنشر الثياب والأمتعة والفرش بالأسطح لمدة طويلة، حتى تتعرض لأشعة الشمس، وقد قاموا بتبخير البيوت كل فترة، وذلك كله بهدف منع انتشار الطاعون، أما فى حالة وجود حالات مرضية، فقد كانوا يرسلون حكيما للكشف على المرضى[٩]. وفى حالة تفشي الأمراض كان يتم عزل المصابين عن الأصحاء فى الحجر الصحي الذى أقاموه فى الجزيرة الواقعة إلى الشمال من بولاق[١٠].

واهتم الفرنسيون بإقامة المنتزهات العامة، ومن أوضح الأمثلة على ذلك المنتزه العام بمنطقة الأزبكية، والذى كان عبارة عن منطقة مستنقعات، فتم تحويله إلى «منتزه يجتمع بها النساء والرجال للهو وخلافه» - وذلك كما يذكر الجبرتي - فى أوقات محددة، وقد كان التمتع بالتنزه يتم بعد دفع مقابل مادى ويذكر مؤرخنا تمتع البعض بالإعفاء من هذا المقابل المادي .

وبالرغم من معارضة الجبرتى لمعظم التغييرات التى أحدثتها الحملة فى هذا الإطار، إلا أنه أبدى أعجابه بالوسائل التى تم اتباعها فى تنفيذها، فيذكر بإعجاب سرعة الإنجاز، وعدم تسخير الناس للعمل فى تلك المشروعات، ويذكر أن الفرنسيين كانوا يعطون الرجال ما يزيد عن أجرتهم المعتادة، وقد أعجب أيضا بالأدوات [١١].التى استخدمت، مثل عربات نقل الأتربة والطين والأحجار، وكذلك بالآلات التى تم استخدامها فى قطع الأخشاب والأحجار[١٢] .

وتوضح كتابات الجبرتى أن المصريين بالرغم من عدائهم للفرنسيين، إلا أنهم أعجبوا بطريقة معاملة الفرنسيين لهم، وعدم تسخيرهم فى تنفيذ تلك المشروعات كما جرت العادة طوال العصر العثماني، وهذا أيضا يؤكد عدم إدراكهم للتغييرات فى شكل الحياة الأوربية وطبيعة العلاقة بين الحاكم والمحكوم، وانتقال أوروبا من النظام الإقطاعى إلى النظام الرأسمالي، مما كان

وراء زيادة حقوق المحكومين واتساع رقعة الحريات وزيادة حقوق المواطنة، تلك التغيرات التى ارتبطت بقيام الدولة القومية الحديثة، ومن الواضح أن تلك الأمور كانت غائبة تماما فى مصر وسائر الولايات العثمانية. وكانت الحملة الفرنسية بمثابة جرس التنبيه لمصر وسائر ولايات الدولة العثمانية، مما كان له أثره الواضح فى إدخال التغييرات فى مصر بعد خروج الحملة مباشرة.

الاهتمام بالبيئة فى عصر محمد على :

من المعروف أن مصر تعد أقدم دولة مركزية فى تاريخ العالم ومن ثم يبقى لدور الحاكم فيها مكانة هامة فى صناعة تاريخها [١٣]، ومن بين هؤلاء الحكام الذين أجادوا هذا الدور، بل وفى مقدمتهم يأتى محمد علي، الذى استطاع وبمعاونة بعض من الأجانب، وعدد من المصريين أن يعبر العصور الوسطى ويدخل مصر فى العصر الحديث، ويوصلها من خلال إصلاحاته المتعددة التى شملت مختلف جوانب الحياة إلى أن تصبح دولة رائدة فى الشرق، بل الأكثر من ذلك احتلت مكانة مرموقة ومتميزة بين دول العالم المتقدم.

ومن تلك الإصلاحات وأهمها تلك المتصلة بالنواحى العمرانية والحضارية، والتى ساهم فى إنجازها بعض الأجانب، بالإضافة إلى عدد من المصريين وخاصة الذين أرسلوا إلى الخارج فى بعثات تعليمية ، تمكنوا من خلالها الاطلاع على مظاهر العمران فى مختلف المدن الأوربية وخاصة مدينة باريس، ثم عادوا إلى مصر. وبدأ الباشا فى إنجاز عدد ليس بالقليل من تلك المشروعات العمرانية والحضارية التى ساهمت فى تحسين الظروف البيئية وإضفاء لمسة حضارية واضحة على العمران فى مدينة القاهرة، وسوف نذكر بعض ملامح تلك المشروعات، وخاصة ما ارتبط منها بتحسين البيئة فى مدينة القاهرة.

اهتم الباشا اهتماما كبيرا بتوسيع مدينة القاهرة، حيث اتجه شمالا ناحية شبرا، وغربا ناحية جاردن سيتي[١٤]. ففى ناحية شبرا قام بإنشاء سواقي

وعمائر وبساتين ومزارع، وذلك بعد سيطرته على أراضى الملتزمين[١٥]. ويضيف الجبرتي بأن الباشا، قد أعطى اهتماما واضحا لزراعة الخضروات، هذا بالإضافة إلى زراعة أنواع من الزهور، ذكرها مؤرخنا بأنها كانت من الزهور العجيبة المنظر، والمتنوعة الأشكال من الأحمر والأصفر والأزرق[١٦].

ولم يقف محمد على عند هذا الحد، حيث اهتم ببناء سراية بها، وأقام طريقا يصل بين شبرا ومدينة القاهرة، وتم تشجيره بأشجار الجميز واللبخ [١٧] .

ولم تكن منطقة شبرا هى المنطقة الوحيدة التى حظيت باهتمام الباشا، حيث اهتم بعمل طريق متسع يصل بين القاهرة وبولاق، ثم قام بعد ذلك بإزالة التلال وأكوام الأتربة التى كانت خارج باب الحديد وفى غرب القاهرة، وقد اهتم بمنطقة الأزبكية وأقام بها بستانا كبيراً[١٨]. كما روعي فى الطرق الجديدة النواحى الهندسية السليمة مثل استقامة الشوارع واتساعها وتشجيرها.

ولم يقف الأمر بالباشا عند هذا الحد، بل امتد اهتمامه ليشمل المساكن القديمة أيضا، فأخذ يعمل على إصلاحها وتوسيعها، وذلك من خلال تكليفه لعدد من المهندسين والمباشرين بالكشف عن تلك المساكن. وعند اكتشاف أى خلل بها، يأمرون صاحب المنزل بهدمه وتغييره، وفى حالة عدم قدرة الأفراد على القيام بتلك الإصلاحات تصدر الأوامر بإخلاء المنازل، ثم بنائها على طرف الميري أى على حساب الدولة[١٩]. وبهذا الأسلوب تم تحديث المنازل القديمة بمدينة القاهرة، وذلك من خلال وجود مصلحة تنظيم الطرق والشوارع التى كانت تضع الرسومات الخاصة بالمباني الجديدة، وتراعي فيها اتساع الشوارع واستقامتها، وهكذا أصبحت عملية البناء خاضعة خضوعاً كاملا لإشراف الدولة.

وقد اهتمت الدولة اهتماما كبيرا بالنظافة العامة، ومن مظاهر الاهتمام الأوامر التى صدرت بمنع ذبح المواشى فى المنازل، وذلك حفاظا على الصحة العامة. وأمر الباشا أيضا بكنس الشوارع والأسواق والمواظبة على رشها بالماء،

كما صدرت الأوامر لرجال الشرطة بمتابعة قيام المواطنين بتنظيف المنازل ورشها بالماء ومتابعة نشر الثياب فوق أسطح المنازل لكى تتعرض الأشعة الشمس، والاهتمام بوضع القناديل على أبواب الدور والحوانيت[٢٠] .

ويتضح من خلال العرض السابق الجهود التى بذلها محمد على لتحديث مصر عامة ومدينة القاهرة خاصة، والتى حظيت باهتمام كبير، باعتبارها عاصمة البلاد، وقد ترتب على تلك الإصلاحات العمرانية، وزيادة مساحة المناطق الخضراء، قلة عدد الوفيات، وذلك بسبب الاهتمام بالأمور البيئية التى انعكست بشكل إيجابى على الصحة العامة للمواطنين. وبهذا الشكل نستطيع القول بأن محمد على قد وضع اللبنة الأولى فى تحديث مصر ومدينة القاهرة خاصة، وهكذا خلعت البلاد بالتدريج رداء العصور الوسطى، وأخذت ترتدي ثوب العصر الحديث .

الاهتمام بالبيئة فى عصر الخديو إسماعيل

ذكرنا فى التقديم للبحث بأن الخديو إسماعيل قد أخرج مصر عامة ومدينة القاهرة خاصة من حالة التخلف التى عاشتها طوال العصر العثماني إلى حالة جديدة من التقدم، تتفق ومقتضيات العصر الحديث، وحتى نكون منصفين فإننا نؤكد بأن ما قام به إسماعيل كان استكمالا لما قام به جده محمد علي باشا. وقد استكملت مصر فى عهده ملامح تطورها ورقيها، وأصبحت دولة قومية حديثة، واستطاعت منذ عصر محمد علي وحتى نهاية عصر إسماعيل أن تحقق مكانة متميزة بين مختلف أمم الشرق.

وقبل أن نبدأ فى رصد الملامح العامة للتطور الحضاري وخاصة الاهتمام بالحدائق والمنتزهات، نذكر بإيجاز العوامل التى كانت وراء تلك الإصلاحات الحضارية التى قام بها إسماعيل، وأهمها ما يلى :

١ - طبيعة الخديوي وتكوينه

ولد إسماعيل ابن إبراهيم ابن محمد علي، فى ٣١ ديسمبر سنة ١٨٣٠ فى قصر المسافرخان فى حي الجمالية بالقاهرة، وعني أبوه بتربيته، فتعلم مبادئ العلوم، واللغات التركية والعربية والفارسية، هذا بالإضافة إلى الرياضيات والطبيعيات[٢١]. وقد تم ذلك كله فى المدرسة الخصوصية التى أنشأها محمد علي فى القصر العينى لتربية الأمراء[٢٢]. ثم أرسل بعد ذلك إلى ڤيينا، وهو فى الرابعة عشرة من عمره، وقضى بها عامين، ثم انتقل بعد ذلك إلى المدرسة المصرية فى باريس، وانضم إلى أعضاء البعثة الخامسة، والتى كانت آخر بعثة كبرى أوفدها محمد علي باشا إلى باريس، وتخصص أعضاؤها فى دراسة الفنون الحربية والطب والطبيعيات، وكان من بين أعضاء تلك البعثة الهامة محمد شريف باشا وعلي مبارك باشا[٢٣]. وقد لعب الاثنان دوراً هاما ورئيسياً فى النهضة المصرية فى عصر الخديو إسماعيل على المستويين السياسي والعمراني.

وهكذا تلقى إسماعيل تعليما حديثا كان له أكبر الأثر فى تكوينه، وتيسر له خلال إقامته فى كل من ڤيينا وباريس الاطلاع على النواحى الحضارية والعمرانية فى أكثر مدن أوروبا تمدينا ورقيا، وبالتالي كانت محاولاته لتحاكى القاهرة هاتين المدينتين.

٢ - التعليم المدنى الحديث

من الثابت تاريخيا أن محمد علي اهتم اهتماما كبيرا بالتعليم المدني الحديث، وذلك اقتباساً من النظم التعليمية الأوربية، فقام بتأسيس المدارس الحديثة، وعني بنشر التعليم على اختلاف درجاته من عال وثانوي وإبتدائي، ومن المعروف أن الهدف الرئيسى من وراء تلك السياسة التعليمية تخريج الكوادر القادرة على القيام بمختلف أعمال العمران فى البلاد، هذا بالإضافة إلى نشر

التعليم بين طبقات الشعب[٢٤]. ومن بين المدارس العالية التى لعبت دوراً هامًا فى النهضة العمرانية والحضارية، المهندسخانة ببولاق التى تعلم فيها عدد كبير من المهندسين الذين قدموا خدمات جليلة للبلاد[٢٥] .

وقد اهتم الباشا بإيفاد البعثات إلى مختلف الدول الأوربية ليكمل الشباب تعليمهم فى معاهدها العلمية، واستطاع أفراد تلك البعثات الاطلاع على مختلف نواحى الحياة الأوربية، واستطاعوا أيضا نقل علوم ومعارف أوروبا إلى مصر. وقد ترتب على تلك البعثات تكوين عدد ليس بالقليل من المثقفين المصريين العصريين الذين آمنوا بضرورة تغيير الحياة المصرية ، وجعل مصر جزء من العالم الحديث المتمدين. وقد بلغ عدد المبعوثين فى عصر محمد علي حوالي ٣١٩ تلميذا، بينما بلغ عدد الذين تلقوا تعليما حديثا فى مصر حوالي ٩٠٠ تلميذ[٢٦]. وعندما تولى إسماعيل حكم مصر عام ١٨٦٣م أعطى اهتماما واضحا للمسألة التعليمية وكانت المجانية أساس التعليم، وتشمل الكسوة والطعام. وتم تقسيم المدارس إلى ثلاثة أقسام إبتدائية وثانوية وعالية. وأقبل المصريون على التعليم فى عصر إسماعيل وذلك بعد أن شاهدوا الفوائد العائدة على المتعلمين، حيث تقلدوا أعلى مراتب التوظف، وحصل البعض منهم على رتبة البكوية والباشوية، وقد كان التعليم المدني الحديث من العوامل الهامة وراء الحراك الاجتماعى فى القرن التاسع عشر وبداية دخول المصريين فى سلك الوظائف الأميرية، وانتقالهم من الطبقة الاجتماعية الدنيا إلى الطبقتين الوسطى والعليا. وقد وصل عدد المتعلمين فى مصر فى عصر إسماعيل حوالى ٤٪ من عامة ذكورها [٢٧]، وأدت تلك السياسة التعليمية إلى ترقية مستوى الأمة المصرية وتقبلها الإصلاحات المتعددة التى شهدها عصر إسماعيل، هذا بالإضافة إلى أن هؤلاء المتعلمين كانوا جنود إسماعيل فى تنفيذ سياسته الإصلاحية الواسعة.

٣ - الأجانب والإرساليات الأجنبية فى مصر

لعبت المدارس التى أنشأتها الجاليات الأجنبية فى مصر دوراً هاما ورئيسا فى نشر مبادئ الحياة الحديثة. ومن المعروف أن الجاليات الأجنبية قد أنشأت مدارسها فى مختلف أرجاء البلاد، هذا بالإضافة إلى مدارس الإرساليات الأجنبية الأميركية والإنجليزية والأسكتلندية. وقد اهتمت الجالية اليونانية - أكبر الجاليات الأوربية فى مصر - بإنشاء مدرسة خاصة بأبنائها فى الإسكندرية، وأنشأت الجالية الإيطالية هى الأخرى مدرسة لها بمدينة القاهرة .

وقد لعبت تلك المدارس دوراً هاماً فى تثقيف العقول وتنوير الأذهان، حيث اهتمت بتعليم اللغات الأجنبية والعربية والحساب والجغرافيا والتاريخ. ويرتبط بدور الأجانب استعانة الخديو إسماعيل بأعداد كبيرة منهم للمساهمة فى النهضة المصرية. ومن أشهرهم ماريت باشا، الذى كان وراء إنشاء المتحف المصري. كما ارتبط بالوجود الأجنبى فى مصر دخول العادات الأوربية إلى البلاد، ويؤكد الرافعى بأن الأساليب الأوربية فى الحياة كانت أرقى بكثير من الأساليب التقليدية الشرقية[٢٨].

وقد أدت العوامل السابقة مجتمعة إلى خلق الظروف الملائمة لقيام الخديوي بتغيير وجه القاهرة وتحويلها إلى مدينة تتمتع ببيئة جيدة وصالحة لإقامة العناصر الأجنبية الوافدة إلى مصر من مختلف الجنسيات الأوربية. هذا بالإضافة إلى كبار ملاك الأراضي الزراعية الذين سارعوا بامتلاك الفيلات وخاصة فى الأحياء الجديدة التى شيدت والتى تم تزويدها بالمرافق الحيوية من إنارة ومياه، بالإضافة إلى قيام الخديوي بتخطيط الشوارع بشكل جيد، مع وجود الحدائق والمتنزهات فى تلك الأحياء، واهتم الخديوي كذلك بالأحياء القديمة وبدأ فى إصلاحها، كل تلك الأمور كانت وراء تزايد سكان مدينة القاهرة .

وقد يكون من المفيد أن نعرض بشيء من التفصيل لتلك المشروعات

الحضارية مع التركيز على الحدائق والمتنزهات التى انتشرت فى مختلف أرجاء المدينة ٠

أهتم الخديو إسماعيل بإنشاء أحياء جديدة فى القاهرة، مثل حي الإسماعيلية والتوفيقية وعابدين وميدان الأوبرا [٢٩]. وقد كانت المنطقة التى أقام بها حي الإسماعيلية عبارة عن كثبان وأتربة وبرك، فقام بتنظيمها وذلك على أساس أن تكون جميع شوارعها وحاراتها على خطوط مستقيمة، أغلبها متقاطع على زوايا قائمة، وجعل منازلها منفردة عن بعضها، أى تركت مساحات خالية بين المنازل، لكى يتخللها الهواء وكذلك أشعة الشمس، أما بالنسبة لشوارع تلك المنطقة الجديدة فقد تم دكها بالدقشوم، ولم يقف الأمر عند ذلك حيث تم تخصيص وسط الشوارع لسير المركبات والحيوانات، مع تخصيص جانبى الشارع لسير المشاه [٣٠]. واهتم الخديوي بمد مواسير للمياه فى شوارع تلك المنطقة وذلك لتحقيق هدفين: الأول رش الشوارع وخاصة فى فصل الصيف، والثاني ري البساتين والحدائق التى تم زرعها فى الحي وخاصة فى الميدان المعروف حاليا بميدان التحرير. وتم نصب فنارات الغاز لإضاءة الشوارع ليلا، وأصبح حي الإسماعيلية بهذا الشكل من أجمل أحياء القاهرة ، وبالتالى ملائما لسكن الأمراء والأعيان[٣١]. واهتم الخديوي كذلك بتوصيل مدينة القاهرة بالجزيرة، وتم ذلك عن طريق إنشاء قنطرة كوبري قصر النيل عام ١٨٧٢م وتكلفت ١٠٨ آلاف من الجنيهات، ثم أنشأ كوبري آخر عرف بكوبري البحر الأعمى أو كوبري الإنجليز، وذلك على أساس أن الشركة التى قامت بتشيده شركة إنجليزية وتكلف أربعين ألفا من الجنيهات وهو ما يعرف الآن بكوبرى الجلاء[٣٢]. وهكذا تم ولأول مرة الربط بين القاهرة والمنطقة الجديدة التى عرفت بالجزيرة، التى أصبحت مشهورة بحدائقها المتعددة، وأصبحت متنزها جميلا يرتاده المواطنون. وتيسر على الأجانب بهذا الشكل الذهاب إلى المنطقة الأثرية بالجيزة .

وكان من بين المشروعات التى تدخل ضمن التخطيط الجديد لمدينة القاهرة، مشروع مدخل القاهرة الغربي، أو ما يعرف بطريق الأهرام الذى يصل المدينة بأهراماتها الخالدة. فقد تم ردم الطريق بارتفاع أربعة أمتار عبر الأراضى المنخفضة والمستنقعات، ورصفه بالأحجار، كما اهتم الخديوي بغرس الأشجار الباسقة على جانبيه [٣٣]، وبالتالى أصبح من أحسن وأجمل شوارع مدينة القاهرة، مما كان وراء زيادة ذهاب الأجانب للأهرامات وتم ذلك كله عام ١٨٦٩م.

وقد اهتم الخديوي أيضًا بإنشاء الميادين الواسعة فى مختلف أرجاء مدينة القاهرة، وتم تجميل تلك الميادين بالحدائق الواسعة الجميلة، التى تشتمل على مختلف أنواع الأشجار. ومن أهم الميادين التى تم إنشاؤها ما يلى :

- ميدان باب الحديد، تجاه الكوبري الموصل للسكة الحديد، ويتصل الميدان بمجموعة من الشوارع الرئيسية والهامة مثل شارع باب الحديد وكلوت بك وشارع الفجالة.
- ميدان الخازندار - الذى يقع شمال حديقة الأزبكية.
- ميدان العتبة الخضراء، تجاه سراى العتبة الخضراء .
- ميدان التياترو، وكان يقع غرب التياترو الخديوي.
- ميدان عابدين، تجاه سراي عابدين..
- ميدان باب اللوق .
- ميدان الدواوين، تجاه سراي المالية والداخلية والحقانية.
- ميدان الأزهار، تجاه منزل محمود باشا الفلكي [٣٤].

ويرجع الفضل إلى عصر إسماعيل فى توصيل وتوزيع المياه فى مدينة القاهرة بواسطة الأنابيب وتم ذلك فى عام ١٨٦٥م. أيضا تم إضاءة المدينة بغاز الاستصباح عام ١٨٦٨م [٣٥]. ويعتبر توصيل المياه والكهرباء إلى منازل المدينة

من أهم المشروعات الحضارية التى غيرت إلى حد بعيد من ملامح الحياة فى القاهرة.

أهم الحدائق والمنتزهات التى أقامها إسماعيل بالقاهرة

حديقة الأزبكية

سبق أن أوضحنا مدى اهتمام الفرنسيين بمنطقة الأزبكية، وأيضا ذكرنا الجهد الكبير الذى قام به رأس الأسرة العلوية فى ظهور بستان وحديقة الأزبكية بشكل جديد متميز، بعد أن كانت المنطقة عبارة عن بركة تصلها المياه وقت الفيضان فقط، وتوجد حولها مجموعة من التلال والأتربة. وقد حدث تطور واضح على الحديقة زمن الخديو إسماعيل، فجرى تنظيمها، وأضيفت إليها مناطق جديدة تم توسيعها من الناحية البحرية وكذلك من الناحية القبلية[٣٦]. وأقام إسماعيل بها القصور والفنادق، وتمت إزالة المبانى الخشبية. واهتم الخديوي كذلك بتوصيل الأزبكية بالموسكي، وأقام بها التياترو الخديوي الذى أصبح من المعالم الأساسية لمنطقة الأزبكية، وذلك فى الجزء القبلي من الحديقة. ومن الواضح أنه قد تم تنسيق وتنظيم منطقة الأزبكية بحدائقها ومبانيها على النسق الفرنسي[٣٧].

ومن العرض السابق يتضح مدى الاهتمام الواضح بالنواحى البيئية والصحية. وإن كان ذلك يتضح بصورة أكبر من خلال رفض مدير الصحة العامة بمدينة القاهرة الطلب الذى قدم إلى نظارة الأشغال العمومية، والخاص ببناء مخازن حول حديقة الأزبكية. وقد جاء فى أسباب الرفض ما يدل على مدى الوعي الكامل بأهمية وجود مثل تلك الحدائق والأماكن الفسيحة، ولذا ننقل الرد كما جاء بمحافظ مجلس الوزراء وهو على النحو التالي «أرى فى هذا المشروع ملاحظات كثيرة توجب رفضه قطعيا، وذلك بالنظر إلى الوجهة الصحية، لأن وجود جهات الفضاء المكشوفة مثل الحدائق والبساتين شرط أساسي لتحسين

الصحة فى المدن الكبيرة لكى يستنشق منها الناس الهواء الخالص، لذلك يجب العناية بازدياد أعدادها وتوسيع نطاقها بقدر الإمكان فإقامة المباني حول الأزبكية من الأمور التى يجب مقاومتها بشدة لأن هذه المبانى تمنع مرور الهواء وانطلاقه فى أهم مكان من الأمكنة المكشوفة القليلة بالقاهرة»[٣٨]. أيضا كانت هناك طلبات أخرى قدمت إلى نظارة الأشغال من بعض الأفراد بغرض شراء جزء من الأرض القائمة حول الحديقة، والتى رفضت مبدئيا كل طلب يؤدي إلى إزالة أى جزء كان من الحديقة، لما فى بقائها من الفائدة الكبرى للقاهرة. وطلبت نظارة الأشغال من الحكومة أيضا عدم تحويلها- أى الحديقة- إلى روضة مباحة، وعللت ذلك بأنه سوف يؤدي ذلك إلى فساد الأخلاق وزيادة العفونة[٣٩]. ويؤكد الموقف من تلك القضايا مدى اهتمام الحكومة بالأمور البيئية، وأن زيادة المساحات الخضراء يقلل من حجم التلوث. والشيء الجدير بالذكر أن ذلك كله كان فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر حيث كان عدد سكان مدينة القاهرة بضعة آلاف، ولم يكن هنالك تلوث ناجم عن كثرة السكان ووسائل المواصلات. هذا مع العلم أنه لم تكن توجد فى تلك الآونة وزارة خاصة بالبيئة ولكن الأمور الصحية تعتبر مسئولية الحكومة كلها. الشيء الآخر الجدير بالذكر، هو تأكيد الحكومة على عدم تحويل الحديقة إلى روضة عامة، مما يدل على أنه بالرغم من المظهر الحضاري الذى كانت عليه المدينة فى عصر إسماعيل إلا أن سلوكيات المواطنين لم تكن بنفس المستوى. وتلك قضية أخرى هامة، ما زلنا نعانى منها حتى اليوم !!! ٠

حدائق الجيزة والجزيرة

يرجع الفضل إلى الخديو إسماعيل فى نقل مجرى النيل إلى وسط مدينة القاهرة، ومن المعروف أنه قد ترتب على ذلك ظهور مساحة كبيرة، عبارة عن برك ومستنقعات بضاحية الجيزة. وقد رأى الخديوي إنه من الممكن تحويل تلك

المناطق بعد ردمها إلى حدائق تنافس تلك الموجودة فى باريس، فولدت حدائق الأورمان والحيوان والأسماك والحرية وقصر الجزيرة والزهرية. واستعان الخديوي بالمهندس الفرنسى باريليه، الذى استطاع تحويل تلك الأماكن إلى حدائق لا تقل جمالا وروعة عن حدائق باريس(٤٠) .

وتعتبر حديقة الأورمان من أهم وأجمل حدائق مدينة القاهرة إلى اليوم، ومن الثابت أن غالبية أشجار هذه الحديقة تم استيرادها من الخارج، بعد أن ردمت الأرضية بطمى النيل إلى ارتفاع يصل إلى مترين، وكذلك تم ردم الأرض المجاورة لها، وتمت تلك الأعمال بمعرفة مقاولين أجانب معظمهم من الفرنسيين(٤١) .

ويرجع الفضل إلى المهندس الفرنسى باريليه فى عمل الرسومات اللازمة لإقامة الحديقة، وتنوع مناظرها تنويعا رائعا. هذا بالإضافة إلى وجود بعض المناطق التى تشبه الجبال، عليها قناطر تمر فوق وديان. مع التنوع فى أرض الحديقة، فجعل بعضها مستويا والآخر منحدراً وبه أنهارا وغدرانا. وقد ضمت الأشجار إلى بعضها فى بعض المناطق، وعزلت فى البعض الآخر، مما أدى فى النهاية إلى أن أصبحت الأورمان تضارع أجمل الحدائق الباريسية. ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد فقط، بل اهتم المهندس الفرنسى بعملية الصيانة المستقبلية للحديقة، حيث رتب فى خدمتها نحو خمسمائة نفر تحت إدارة أسطاوات من الأفرنج، وذلك بهدف خدمة الأشجار وسقيها بالخراطيم، وكنس الطرقات والممرات التى بين الأحواض(٤٢)، مما ترتب عليه أن أصبحت تلك البساتين فريدة فى نوعها، وذلك نتيجة لحسن إدارتها بعد إنشائها ٠

ومن الجدير بالذكر أن عملية إنشاء مثل تلك الحدائق، كانت تسير وفق خطة مرسومة من قبل الخديوي نفسه. ونستدل على ذلك من الطريقة التى تمت بها إقامة الحدائق بمدينة القاهرة. فتذكر الوثائق أنه قبل إقامة حديقة الحيوان

بمدة طويلة، أرسل الخديوي رسالة إلى مفتش عام الصحة بالسودان، تحتوى على قائمة بأهم أنواع الحيوانات والطيور التى يطلبها الخديوي من بلاد السودان والنوبة والحبشة. وأكد الخديوي فى رسالته على ضرورة اهتمام مفتش الصحة والحكمدار بجمع تلك الحيوانات والطيور، وإرسالها إلى مدينة القاهرة، وألمح أيضا على ضرورة تعود تلك الحيوانات على أنواع الأغذية المصرية، وبعد أن تعتاد على تلك الأطعمة يتم إرسالها مع كافة «الاحتراسات والتحفظات التى تلزم لها». ونبه الخديوي على ضرورة المحافظة على الحيوانات والطيور، ثم ذكر فى نهاية الرسالة ضرورة أن تشتمل على الذكور والإناث[٤٣].

ومن المعروف أن جلب الحيوانات للحديقة لم يكن قاصرا على الحيوانات والطيور من أفريقيا فقط، بل تم جلب حيوانات وطيور من المناطق الشمالية الباردة. وهذا يوضح أن إقامة الحدائق بأنواعها المختلفة، كان يتم طبقا لخطة مرسومة وبتعليمات مباشرة من الخديوي .

وبعد ذلك بدأت الخطة تسير سيرها الطبيعي، حيث توضح الوثائق أيضا ما تم بعد ذلك من عمل الرسومات المختلفة لإنشاء الحدائق، وتعيين المهندسين اللازمين للقيام بهذا العمل الهام[٤٤]. وقد اتضح ذلك فى رغبة الخديوي فى إنشاء بستان بسراى الجيزة وآخر بسراى الجزيرة، فعند إنشاء البستان الأول، قام بإحضار أحد المهندسين المشهورين من الآستانه للقيام بعمل الرسومات. وقام المهندس التركي بإحضار عدد من الأسطاوات الذين قاموا بتنظيم البستان المذكور، وفرشوا طرقه بالزلط الملون المجلوب من رودس، وجعلوا فيه جبلايات وبركاً متسعة، وأنهرا وغدرانا عليها قناطر. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل أقاموا أماكن للجلوس ووضعوا الطيور فى أقفاص، وتم توصيل مياه النيل المرفوعة بواسطة آلات الرفع الحديثة، وفى النهاية تم توزيع فوانيس الغاز فى مختلف أنحاء البستان[٤٥] .

وهكذا استطاع الخديو إسماعيل تحويل المناطق التى كانت عبارة عن برك ومستنقعات إلى مناطق للتنزه، وذلك من خلال تحويلها إلى حدائق عامة لكثرة ما فيها من الأشجار والأزهار والأنهار والقناطر والجبلايات. هذا بالإضافة إلى الحيوانات، التى تم جلبها من مختلف البقاع وخاصة من جنوب مصر. وقد انعكس كل ذلك بشكل إيجابي على البيئة. ولم يقتصر الأمر عند ذلك، حيث قام الخديوي بالاهتمام بزراعة الأشجار على النيل فى القاهرة وكذلك فى بولاق. وقد تركت تلك الإصلاحات بصماتها الإيجابية على الصحة العامة للمواطنين فزاد عدد سكان مصر الذى وصل فى نهاية عصر إسماعيل إلى ما يزيد عن خمسة ملايين ونصف[٤٦]، وذلك بسبب انحسار الأوبئة التى كانت تنتشر فى السابق بسبب الظروف البيئية. وهناك ظاهرة أخرى جديرة بالرصد وهى أن معظم الحدائق قد شيدت فى منطقة الجزيرة والجيزة، ويرجع السبب فى ذلك إلى وجود المساحات الواسعة من الأراضى غربى نهر النيل، مما كان وراء استغلال تلك المناطق فى إقامة الحدائق. وبهذا الشكل تحولت المناطق التى كانت وراء انتشار الأمراض والأوبئة إلى مناطق جميلة يرتادها المصريون والأجانب.

ومن المعروف أن الدولة كانت هى المسئولة عن الصرف على تلك الحدائق، حيث تم تخصيص سبعون ألف فرنك لحديقة الجزيرة، هذا بالإضافة إلى تخصيص خمسمائة وسبعة عشر ألف فرنك لتربية الحيوانات والنباتات بمختلف الحدائق. وتوضح الوثائق ظاهرة جديرة بالرصد، وهى أن القائمين على شئون تلك الحدائق قد ذكروا بأنهم سوف يقومون بزراعة محصولات زهرية ونباتات وأنواع من الخضروات، ومن خلال بيع تلك المحصولات سوف يستغنون عن مساعدة الدولة، وأكدوا بأن الإيرادات الناجمة عن ذلك سوف تفوق المصروفات مستقبلا[٤٧].

منطقة شبرا :

بدأ الاهتمام بزراعة الأشجار فى منطقة شبرا منذ عصر محمد علي، وكان هذا الاهتمام هو المسئول عن أن تلك المنطقة أصبحت فى عصر الخديو إسماعيل، وبعد تزايد العمران فى مدينة القاهرة، من أهم مناطق التنزه والرياضة وذلك بسبب مزارعها النضرة ومناظرها الجميلة. وقد كان يقصدها المرتاضون، سواء كانوا مشاه أو ركبانا، كما كان يقصدها أفراد العائلة الخديوية وكبار السراة والأعيان، وكان يظلل الشارع الرئيسى بمنطقة شبرا أنواع متعددة من الأشجار، مثل الجميز العتيق المزروع منذ عصر محمد علي(٤٨). هذا بالإضافة إلى زيادة الاهتمام بتلك المنطقة فى عصر الخديو إسماعيل، والدليل على مدى الاهتمام بتلك المنطقة أن الإشراف على أشجارها وحدائقها كان موكولا إلى موظف يعرف بمأمور مصلحة شبرا، وكان يتبع ناظر عموم المتنزهات(٤٩).

وتوضح وثائق عصر إسماعيل أن مسألة قطع أي شجرة من الأشجار العتيقة فى أي حديقة من الحدائق أو فى أي شارع من الشوارع كانت عملية فى منتهى الصعوبة، والدليل على ذلك الوثيقة التى تحتوى على رسالة موجهة من مأمور شبرا إلى ناظر عموم المنتزهات، والتى يطلب فيها الأول التصريح له بقطع ثلاثة أو أربعة نخلات بلح وشجرة لبخ من جهة شبرا، فما كان من ناظر عموم المتنزهات إلا أن عرض الأمر على الأعتاب السنية أى الخديوي الذى أصدر أوامره بالامتناع ورفض هذا الطلب(٥٠).

وهذه الوثيقة ليست فى حاجة إلى أي تعليق، حيث تؤكد على مدى حفاظ الدولة على الأشجار وخاصة التاريخية، وأن عملية التخلص من الأشجار كانت تستلزم أمراً من الخديوي نفسه، وبهذا الشكل تم الحفاظ على تلك الثروة الهامة التى لا تقدر لما لها من أهمية فى الحفاظ على البيئة والقضاء على التلوث ورفع

المستوى الصحي للمواطنين، هذا بالإضافة إلى زيادة حجم السياحة إلى مصر للتمتع بالبيئة الطبيعية.

إنشاء حمامات حلوان

تم التعرف على هذه المنطقة «حمامات حلوان» فى عهد عباس الأول، حيث عثر بعض العساكر على عين ماء معدنية فى شرق المدينة، فتوضئوا واغتسلوا ، وترتب على ذلك شفائهم من مرض جلدي. وعندما وصل ذلك إلى أسماع عباس الأول اهتم بالأمر، وأمر أن يبنى على العين حمام ولكنه مات ولم يتم ما أراد(٥١).

وقد حظيت تلك البقعة باهتمام الخديو إسماعيل، الذى أرسل بعثة إلى تلك المنطقة لفحص المياه الكبريتية. وكانت النتائج مشجعة للغاية حيث أكدت على أهمية مياه العين فى شفاء جميع الأمراض المحتاجة إلى المركبات الكبريتية مثل الأمراض الجلدية والزهرية(٥٢).

وقد تميزت تلك المنطقة، بالإضافة إلى الميزة الرئيسية السابقة، بجفاف هوائها، هذا بالإضافة إلى ارتفاعها عن سطح البحر(٥٣). ومن ثم كان طبيعيا فى إطار اهتمام الخديو إسماعيل بتحديث مصر، أن يوجه عناية كبيرة إليها لكي تصبح مكانا صالحا للاستشفاء والتنزة، ومن ثم بدأت بعد ذلك واعتبارا من عام ١٨٧١ م الإجراءات التنفيذية الخاصة بإنشاء الحمامات.

وتوضح الوثائق أن الإجراءات التنفيذية قد بدأت عند ما طلب الطبيب رايل، المكلف بعمل الإنشاءات اللازمة للموقع، من رياض باشا المسئول عن الخزينة، ما يلى :

- الحصول على المبالغ اللازمة للمشروع والتى تم تحديدها بمبلغ خمسة آلاف قرش صاغ .

- عمل قنايات تحت الأرض وذلك لتصريف مياه الحمامات .

- تمهيد الطريق من محطة حلوان وذلك لتسهيل الوصول إلى مكان الحمامات.

- الحصول على الأدوات اللازمة للقيام بتلك الأعمال وهى عبارة عن أربع خيام كبيرة بثلاثة عواميد، وخيمة تشبه الخيمة التى يستعملها ضباط الجيش، وخمس وعشرين سرير حديد بفرشهن، وخمسة وعشرين ترابيزة، ومائه كرسى عادة، والأخشاب اللازمة لتغطية الحمامات والحيطان، وتلك الأخشاب عبارة عن مائة لوح عرض عشرة إلى اثنتا عشرة بوصة، ومائة لوح بندق، ومائة مرينة عرض ثلاثة بوصة .

وقد طلب الطبيب المذكور من رياض باشا إرسال مكاتبة إلى مدير الجيزة، تفيد مساهمة المديرية بمركب من مراكبها لنقل تلك المهمات من القاهرة إلى محل الحمامات بحلوان. ومن الواضح أن تلك المهمات قد حصل عليها الطبيب المذكور دون مقابل، مساعدة من الخديوي فى إقامة هذا المشروع الحيوي الهام. ويضاف إلى ذلك صدور أمر من سراي عابدين للخواجات هرمي ويونهايم فى ٨ مارس ١٨٧٣، بفتح اعتماد بمبلغ أربعة آلاف فرنك باسم الطبيب رايل وذلك لزوم الأشغال المطلوبة بحمام حلوان (٥٤).

وقد تم التغلب على مشكلة بعد العين عن مدينة القاهرة، وذلك بإقامة خط سكة حديد بين المحروسة والمنتجع الصحي. وقد كان الخط يبدأ من ميدان القلعة ليمر شرق قرافة المماليك وضريح الأمام الشافعي، ثم شرقي البساتين إلى أن يصل إلى حلوان، وهذا الخط عرف فيما بعد باسم خط المحاجر. وقد قام الخديوي بإجراءات أخرى هدفها تشجيع الإقامة فى تلك البقعة ومنها تشييد القصر الفخم المعروف «بقصر الوالدة». أيضا قام الخديوي بتقسيم الأراضي المحيطة بالعيون، ثم تخطيط الشوارع والميادين، كما تم منح تلك الأراضي فى شكل إنعامات وذلك بهدف تشجيع المصريين على البناء فيها، كما تم إقامة فندق كبير بجوار الحمامات.

ويتضح من العرض السابق الخاص بالمنتزهات والحمامات والحدائق التى ظهرت إلى حيز الوجود فى عصر إسماعيل، مدى اهتمام الخديوي بتوفير أكبر قدر من الظروف البيئية الصحية التى تتناسب مع التطورات الأخرى المختلفة التى عاشتها مصر فى تلك المرحلة الهامة من تاريخها والتى وضعت إسماعيل بالتالى بين أهم من حكموا مصر فى العصر الحديث، وجعلت عصره نقلة حضارية هامة فى تاريخ البلاد. ومن الضرورى أن نؤكد على حقيقة هامة وهى الأهم فى تقديرنا من إقامة تلك المشروعات هي عملية الاستمرار فى رعايتها ومتابعتها وصيانتها، وقد تأكد ذلك من خلال التنظيم الإدارى لتلك المشروعات الحيوية الهامة.

إدارة الحدائق والمنتزهات فى عصر إسماعيل :

كانت عملية إنشاء وصيانة الحدائق والمنتزهات وكذلك عملية تنظيم الطرق والشوارع خاضعة لإشراف نظارة الأشغال. وكانت توجد بالأشغال مصلحة تحت مسمى «مصلحة تنظيم الطرق والشوارع»، وتقوم تلك المصلحة باختصاصاتها المتعلقة بها مثل تنظيم الشوارع والإشراف على المباني، وقد تم الاستعانة بالأجانب وخاصة من الإيطاليين وذلك للإشراف على عمليات الدهانات الخاصة بالقصور والمدارس وخلافه(٥٥).

أما بالنسبة للحدائق والمنتزهات، فقد كانت هناك إدارة خاصة بها عرفت بإدارة عموم المنتزهات يرأسها «ناظر عموم المنتزهات» وكان يتولى الناظر مسئولية تلك الإدارة من خلال عقد عمل، ويتضح ذلك من خلال وثيقة باللغة الفرنسية، توضح عملية التعاقد مع مسيو باريليه الفرنسي.

وقد تكفل الموظف المذكور بإقامة معظم الحدائق والمنتزهات التى شهدتها مدينة القاهرة فى عصر إسماعيل، هذا بالإضافة إلى مسئوليته الكاملة عن عملية الصيانة والإشراف على تلك الحدائق. وتوجد وثيقة بالأرشيف

الأوروبى توضح ما تكلفته عملية إقامة تلك المنتزهات، والتى وصلت إلى أكثر من مائتى ألف فرنك(٥٦) .

ثم كانت هناك وظيفة أخرى وهى وظيفة وكيل ناظر عموم المنتزهات المصرية، وقد كان هو الآخر فرنسيا، وكان الوكيل مسئولا عن عملية متابعة الأعمال التى تجرى بصفه يومية فى تلك المنتزهات والحدائق، هذا بالإضافة إلى مسئوليته عن تحديد الأجور الخاصة ببقية أفراد الجهاز المسئول عن تلك الأعمال اليومية(٥٧).

ومن خلال الوثائق يتضح أنه قد تم تقسيم القاهرة إلى عدة مأموريات، وبكل مأمورية موظف مسئول عما بها من حدائق ومنتزهات، حيث كان هناك مأمور مصلحة شبرا، والذى كان مسئولا أمام ناظر عموم المنتزهات عن الحدائق الموجودة بدائرة مأموريته، ومن الواضح أن اختصاصاته كانت محدودة تماما لدرجة أن عملية قطع شجرة كانت تستلزم أمراً من ناظر عموم المنتزهات، وهو الآخر لا يمكنه البت فى الأمر إلا بعد عرض الموضوع على الخديو نفسه(٥٨)، مما يدلنا على أهمية المحافظة على الأشجار والبيئة فى تلك الآونة. هذا عن عملية الإشراف العام على الحدائق، أما بالنسبة لأسلوب العمل فى الحدائق ذاتها فقد كان على النحو الآتي:

- كان هناك موظف مسئول عن الحديقة بأكملها، وقد كان منوطا به حفظ وزخرفة المزروعات بعناية وإتقان، وكان مسئولا أيضا عن حفظ جميع الأدوات المستخدمة فى عملية صيانة الحديقة، هذا بالإضافة إلى ملاحظة الشغالة إجمالا وأفرادا مع توجيههم .

- وكان لهذا الموظف وكلاء يقومون بتنفيذ أوامراه وقت تغيبه لأى سبب من الأسباب، وكان هناك ما يعرف بالملاحظ الأول، وواضح من الاسم أنها وظيفة تختص بملاحظة الشغالة أثناء العمل، وكان هناك موظف آخر تحت اسم رئيس

أول قسم، ووظيفته المسئولية المباشرة عن الشغالة الذين يعملون باليومية وعملية اختيارهم من أصحاب الأجسام القوية السليمة ـ وقد كان جميع أصحاب الوظائف السابقة من الأجانب وخاصة الفرنسيين.

– كان هناك أيضًا ملاحظ من المصريين، وهو المسئول عن عملية إحضار الشغالة وتوجيههم لأعمالهم ومراجعتها، بالإضافة إلى مسئولية الملاحظ المصري عن الأمور الضرورية للحديقة.

– أما بالنسبة لعملية التقاوى اللازمة للحديقة فقد كانت من اختصاص أحد الفرنسيين، وكانت بعهدته السجلات الخاصة بذلك(٥٩) .

ومن الواضح أن عملية الاهتمام بالبيئة لم تكن قاصرة فقط على الاهتمام بالحدائق والمنتزهات والحمامات فقط، بل امتد الاهتمام ليشمل مياه الشرب والعمل على إمداد مدينة القاهرة بالمياه الصالحة، والفحص المستمر لها، مع تقديم تقرير دوري يوضح مدى صلاحيتها للشرب والاستخدام الآدمي(٦٠).

وفى هذا الإطار لا بد من التركيز أيضا على التطور الواضح فى عملية البناء فى مدينة القاهرة كعاصمة، بالإضافة إلى الاهتمام بعملية البناء وعمارة عدد من كبرى مدن الإقاليم. ومن ملامح التطور فى هذا الإطار الاهتمام بشق الشوارع الجديدة التى تدخل الضوء والهواء، وإقامة الميادين العامة ورصف الشوارع وتبليط الطرقات وتنظيفها ورشها بالماء وتشجيرها. هذا بالإضافة إلى الاهتمام بدراسة إقامة شبكة الصرف والتى كان غيابها أحد أسباب الأمراض الناجمة عن العفونات. وقد توجت تلك الأعمال السابقة بالاهتمام بإنشاء الحدائق والمنتزهات التى ذكرنا جانبا منها فى الصفحات السابقة(٦١) .

ومن الواضح أن محمد على باشا والخديو إسماعيل قد استعانا بالأجانب لإقامة تلك المشروعات الهامة وذلك ليس عيبا فى حد ذاته، حيث كانت مصر

فى تلك المرحلة تمر بمرحلة الانتقال من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة، وفى تلك المراحل الانتقالية لابد من الاستفادة ممن سبقونا فى هذا المجال، وبالتالى اتجه الاثنان إلى الاستعانة بالخبرة الفرنسية.

والشيء الجدير بالذكر أن المصريين قد استفادوا من الأجانب فى هذا المجال واستطاعوا بعد ذلك القيام بأنفسهم بمعظم تلك الأعمال الهامة، ومن بينهم وأهمهم جميعا على باشا مبارك، الذى درس فنون الهندسة والاستكمالات أثناء بعثته فى فرنسا عام ١٨٤٤م - ثم عاد إلى مصر بعد البعثة وساهم بشكل إيجابى فى عملية البناء والتعمير فى مصر - وبالتالى فإنه يعد من أهم البنائين فى تاريخ مصر فى القرن التاسع عشر، ويقول عنه أحد الباحثين أنه كان بحق «أعظم مهندسي الزراعة والصناعة والتجارة والعمارة فى عصر نهضتنا في القرن التاسع عشر على الإطلاق» (٦٢).

وبمقتضى الوسائل التى ذكرناها ظل الماء يهطل على الشوارع فى الصباح والعصر بانتظام، وأخذت جميع المنازل تهتم بالنظافة اليومية والغسيل المستمر، مما انعكس بشكل إيجابي على صحة المواطنين. وهكذا كان الاهتمام بالبيئة أهم مميزات عصر إسماعيل، مما كان وراء وضعه كأحد البنائين العظام فى تاريخ مصر الحديث.

أهم نتائج البحث :

- الاهتمام بالبيئة فى مدينة القاهرة ارتبط بعملية التحديث التى عاشتها مصر مع بداية القرن التاسع عشر.

- أعطى الخديو إسماعيل اهتماماً واضحا لعملية التحديث فى مدينة القاهرة ومن مظاهر هذا الاهتمام - تنظيم الشوارع والمبانى - إقامة الميادين الواسعة فى مختلف مناطق القاهرة - زيادة المساحات الخضراء وذلك من خلال إقامة عدد كبير من الحدائق والمتنزهات بالمدينة.

- استعان الخديو إسماعيل بالخبرة الأجنبية، وخاصة الفرنسية، ومن ثم أصبحت حدائق مدينة القاهرة لا تقل روعة وجمالا عن حدائق باريس.

- ومن مظاهر الاهتمام بالبيئة المحافظة على الأشجار لدرجة أن قطع أى شجرة كان يتطلب أمراً من الخديوي.

- كانت نظارة الأشغال ترفض أى طلب يهدف إلى التعدي على الحدائق وذلك باقتطاع مساحات منها لتحويلها إلى أغراض أخرى.

- لم يقتصر الأمر على إقامة الحدائق والمتنزهات فقط بل امتد الاهتمام ليشمل صيانة تلك الحدائق والمحافظة عليها، وذلك من خلال نظام إداري دقيق.

- ترتب على الاهتمام بالأمور البيئية - عدم تعرض البلاد للأوبئة والأمراض كما كان الحال من قبل.

الهوامش

(١) على مبارك - الخطط التوفيقية ج ١، ص ١٩٨.
(٢)علماء الحملة الفرنسية - وصف مصر ج ١، ص ٢٠ ترجمة زهير الشايب.
(٣) المصدر السابق، ص٢٤.
(٤) علي مبارك - المصدر السابق، ص١٩٩.
(٥) علي مبارك - المصدر السابق، ص١٩٨ .
(٦) علماء الحملة الفرنسية - المصدر السابق، ص٣٢.
(٧) علماء الحملة الفرنسية - المصدر السابق، ص٣٠ .
(٨) عبد الرحمن الجبرتى - عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ج٣، ص ٢٣١ .
(٩) المصدر نفسه، ص ٢١١ .
(١٠) علماء الحملة الفرنسية - وصف مصر ج١، ص٣٣ .
(١١) عبد الرحمن الجبرتى - المصدر السابق ج٢، ص٢٣١.
(١٢) المصدر السابق ج٣، ص٢٣٢.
(١٣) الهلال - أكتوبر سنة١٩٩٨ - مقال بعنوان محمد علي وعبد الناصر بقلم د ٠يونان لبيب زرق ص٨٨ .
(١٤) الأهرام ٤ /١٠ / ٢٠٠٠ من مقال أحمد عبد المعطى حجازى بعنوان: اللى بنى مصر ٠
(١٥) الجبرتى - عجائب الآثار ج٣، ص٢٤٦.
(١٦) المصدر نفسه، ص٣٧٠.
(١٧) الجبرتى - المصدر نفسه، ص ٣٧١ .
(١٨) علي مبارك - الخطط التوفيقية ج١، ص٢١٠ ٠
(١٩) الجبرتى - المصدر السابق، ص٥١٩ ٠
(٢٠) الجبرتى - المصدر السابق، ص٤٠٢ ٠
(٢١) عبد الرحمن الرافعي - عصر إسماعيل ج١، ص٧٤ ٠
(٢٢) إلياس الأيوبي - تاريخ مصر فى عصر الخديو إسماعيل باشا من سنة١٨٦٣ - ١٨٧٩م المجلد الأول، ص٨ .
(٢٣) عبد الرحمن الرافعي - عصر محمد علي، ص٤٢٣ .
(٢٤) عبد الرحمن الرافعي - المرجع السابق ، ص٤٠١.
(٢٥) المرجع نفسه، ص٤٠٢.
(٢٦) المرجع نفسه، ص٤١٣.
(٢٧) إلياس الأيوبي - المرجع السابق، ص٢٣٠.
(٢٨) عبد الرحمن الرافعي - عصر إسماعيل، ص٢٩٣ .
(٢٩) شحاته عيسى إبراهيم - القاهرة، ص٣٠٧ .
(٣٠) علي مبارك - الخطط التوفيقية ج٣، ص٤٠٤ .
(٣١) المصدر نفسه، ص٤٠٥.

(٣٢) شحاته عيسى إبراهيم - القاهرة، ص٣٠٨.
(٣٣) المرجع نفسه، ص٣٠٧ .
(٣٤) على مبارك - المصدر السابق، ص٤١٥ .
(٣٥) شحاته عيسى إبراهيم - المرجع السابق، ص٣٠٩ .
(٣٦) علي مبارك - المصدر السابق، ص٢٥١.
(٣٧) شحاته عيسى إبراهيم - المرجع السابق، ص٣٠٧ .
(٣٨) مجلس الوزراء - نظارة الأشغال محفظه ٥/١ .
(٣٩) المصدر السابق .
(٤٠) الأهرام ٢٠٠١/٣/١٦ - من تحقيق هاله أحمد زكي بعنوان: قبل أن تختفي حدائق مصر التاريخية.
(٤١) علي مبارك - المصدر السابق ، ص٢١٢.
(٤٢) المرجع السابق.
(٤٣) الأرشيف الأوروبي - عصر إسماعيل محفظه ٦٢ - طلب إرسال حيوانات وطيور إلى مصر ٥ ديسمبر سنة ١٨٦٨م .
(٤٤) الأرشيف الأوروبي - المصدر السابق - خطاب فرنساوى وارد لسعادة رياض باشا من مسيو نذسور فى ٢٥ مايو سنة١٨٧١ بشأن تحويل جنينه باسترن إلى جنينه حيوانات.
(٤٥) علي مبارك - الخطط ج١، ص٢١٢.
(٤٦) وثائق عابدين محفظه ٦٤٥ .
(٤٧) الأرشيف الأوروبي ـ عصر إسماعيل محفظه ٦٢ .
(٤٨)أحمد شفيق ـ مذكراتي فى نصف قرن ج١، ص٥٥ .
(٤٩) الأرشيف الأوروبي ـ عصر إسماعيل محفظة ٦٢ .
(٥٠) نفس المصدر.
(٥١) الأهرام ٢٧ يوليو ٢٠٠٠ من «الأهرام ديوان الحياة المعاصرة » .
(٥٢) نفسه .
(٥٣) شحاته عيسى إبراهيم - القاهرة، ص٣٠٩.
(٥٤) نظارة الأشغال - محفظة ٤١ ملف ١/١٤ .
(٥٥) نظارة الأشغال ـ محفظة ٤١٣٩ ملف ٢٢/٣٩ .
(٥٦) الأرشيف الأوروبي ـ عصر إسماعيل محفظة ٦٢ .
(٥٧) عصر إسماعيل محفظه ٤/٣٩ ملف ٢٢/٣٩.
(٥٨) الأرشيف الأوروبي - عصر إسماعيل محفظة ٦٢.
(٥٩) الأرشيف الأوروبي - عصر إسماعيل محفظة ٦٢، إدارة المنتزهات.
(٦٠) مجلس الوزراء - نظارة الأشغال محفظة ٨/١.
(٦١) محمد عمارة - علي مبارك مؤرخ ومهندس العمران، ص٣١٤، ولمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى الخطط التوفيق لعلي باشا مبارك.
(٦٢) محمد عمارة ـ المرجع السابق، ص٣١٦ .